الصاعقة الثامنة بعد المئة: أفاضلُ الناس أغراضٌ لدى الزمن(*)

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لدى الزمنِ ... يخلو منَ الهمّ أخلاهم منَ الفطنِ

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ ... شرٍّ على الحُرّ منْ سُقمٍ على بدنِ

حولي بكلّ مكانٍ منهمُ خلَقٌ ... تُخطي إذا جئتَ في استفهامِها بمنِ

لا أقتري بلداً إلا على غررٍ ... ولا أمرُّ بخلقٍ غيرِ مُضطغنِ(١)

ولا أعاشرُ منْ أملاكِهِمْ ملكًا ... إلا أحقَّ بضربِ الرأسِ منْ وثنِ

إني لأعذرُهمْ مما أعنّفُهُمْ ... حتى أعنّفُ نفسي فيهِمِ وأني

فقرُ الجهولِ بلا قلبٍ إلى أدبٍ ... فقرُ الحمارِ بلا رأسٍ إلى رسنِ

ومدقعينَ بسبروتٍ صحبتُهُمُ ... عارينَ من حُللٍ كاسينَ منْ درنِ(٢)

خُرّاب باديةٍ غرثى بطونُهُمُ ... مكنُ الضِّبابِ لهمْ زادٌ بلا ثمنِ(٣)

يستخبرونَ فلا أُعطيهم خبري ... وما يطيشُ لهمْ سهمٌ منَ الظّنِ

وخلّةٍ في جليسٍ ألتقيهِ بها ... كيما يرى أننا مثلانِ في الوَهَنِ

وكلْمةٍ في طريقٍ خفْتُ أعربُها ... فيُهْتَدَى لي فلمْ أقدرْ على اللَّحنِ

(*) مناسبة القصيدة: قالها يمدح أبا عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الخطيب الحصيبي، وهو يومئذٍ يتقلّد القضاء بإنطاكية.

(١) أقتري: أتتبع. الغرر: تعريض النفس للهلكة.

(٢) المدقع: اللاصق بالأرض ذلاً. السبروت: القفر لا نبات فيه.

(٣) الخراب: جمع خارب: الذي يسرق الإبل خاصة. غرثى: ضامرة من الجوع. مكنها: بيضها.

قد هوّنَ الصبرُ عندي كلَّ نازلةٍ ... وليّن العزمُ حدَّ المركبِ الخشنِ

كم مخلصٍ وعلًا في خوضِ مهلكةٍ ... وقتلةٍ قُرنتْ بالذمِّ في الجبُنِ

لا يُعجبنَّ مضيمًا حُسنُ بزّته ... وهلْ ترُوقُ دفينًا جُودةُ الكفَنِ

لله حالٌ أُرجّيها وتُخلفُني ... وأقتضي كونَها دهري ويمطُلني

مَدَحتُ قَومًا وإنْ عشنا نظمتُ لهم ... قصائدًا منْ إناثِ الخيلِ والحُصُنِ

تحتَ العجاجِ قوافيها مضمّرةٌ ... إذا تُنُوشدنَ لمْ يدخُلنَ في أذنِ

فلا أُحاربُ مدفوعًا إلى جدرٍ ... ولا أُصالحُ مغرورًا على دخنِ[1]

مخيِّمُ الجمعِ بالبيداء يصهرُهُ ... حرُّ الهواجرِ في صُمٍّ من الفتنِ

ألقى الكرامُ الألى بادوا مكارمَهُم ... على الخصيبيّ عند الفرضِ والسُّننِ

فهُنّ في الحجرِ منهُ كلَّما عرضتْ ... له اليتامى بدا بالمجدِ والمننِ

قاضٍ إذا التبسَ الأمران عنّ له ... رأيٌ يُخلِّصُ بين الماءِ واللبنِ

غضُّ الشبابِ بعيدٌ فجرُ ليلتِه ... مُجانبُ العينِ للفحشاءِ والوسنِ

شرابُهُ النّشحُ لا للريِّ يطلُبُهُ ... وطُعمُهُ لقوامِ الجسمِ لا السَّمَنِ[2]

القائلُ الصدقَ فيه ما يُضرّ به ... والواحدُ الحالتين السرِّ والعلنِ

الفاصلُ الحكمَ عيَّ الأولون به ... والمظهرُ الحقَّ للساهي على الذَّهنِ

---

(١) الدخن: الفساد.

(٢) النشح: الشرب القليل.

أفعالُه نسبٌ لوْ لم يقلْ معها ... جدّي الخصيبُ عرفنا العرقَ بالغصنِ

العارضُ الهتنُ ابنُ العارضِ الهتنِ ابـ ... ـنِ العارضِ الهتنِ ابنِ العارضِ الهتنِ[1]

قد صيرتْ أولَ الدنيا وآخرَها ... آباؤه منْ مغارِ العلمِ في قرنِ

كأنهم ولدوا منْ قبلِ أنْ ولدوا ... أو كانَ فهمُهمْ أيامَ لم يكنِ

الخاطرينَ على أعدائِهم أبداً ... منَ المحامد في أوقى منَ الجننِ[2]

للناظرينَ إلى إقبالِه فرحٌ ... يُزيلُ ما بجباهِ القومِ منْ غَضَنِ

كأنَّ مالَ ابنَ عبدِالله مغترفٌ ... منْ راحتيْه بأرضِ الرّومِ واليَمَنِ

لم نفتقدْ بكَ من مزنٍ سوى لثقٍ ... ولا منَ البحرِ غير الريحِ والسُّفُنِ[3]

ولا من الليثِ إلا قُبحَ منظرِه ... ومنْ سواه سوى ما ليسَ بالحسنِ

منذُ احتبيتَ بأنطاكيةَ اعتدلتْ ... حتى كأنَّ ذوي الأوتارِ في هُدنِ

ومذ مررتَ على أطوادِها قرعتْ ... من السجودِ فلا نبتٌ على القننِ

أخلتْ مواهبُك الأسواقَ منْ صنعٍ ... أغنى نداكَ عنِ الأعمالِ والمهَنِ

ذا جُودُ منْ ليسَ منْ دهرٍ على ثقةٍ ... وزُهْدُ منْ ليسَ منْ دُنياهُ في وَطنِ

وهذه همّةٌ لم يُؤتَها بشرٌ ... وذا اقتدارُ لسانٍ ليس في المُننِ

فمر وأومئْ تطعْ قدّستَ من جبلٍ ... تباركَ اللهُ مُجري الروحَ في حَضَنِ[4]

---

(١) الهتن: كثرة الانصباب.

(٢) أوفى: أحفظ.

(٣) اللثق: الندى يعلق بالأرض فتصير وحلاً.

(٤) حضن: جبل عظيم بنجد.